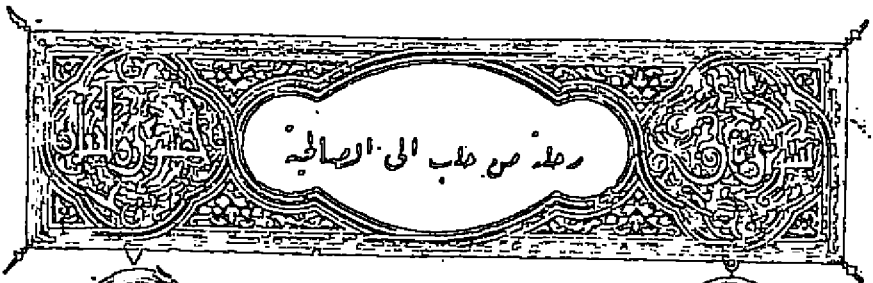

بقلم الاب توتل اليسوعي

في ربيع سنة ١٩٣٠ ، قطعنا مفاوز البلاد ومسافاتها ، بين حلب والصالحية على الفرات ، وساعدتنا الظروف على حطّ الرحال ، تارة عند اهل الحضر ، في دير حافر ودير الزور والميادين والصالحية ، وطوراً عند اهل الوبر ، في بيوت الشعر وعند كثبان الرمال الموارية انقاض المدن القديمة . وتصرفنا الى بعض الاهلين واستخبرناهم الاخبار ، وانكشفت لنا مناظر تلك البقاع المجهولة فاوقفتنا على اطلالها واتجادها وحزونها . ومن رمال البادية عدنا الى بيروت ، فالمكتبة الشرقية ، حيث المؤلفات العديدة ، على بلاد حلب والزور والجزيرة والفرات ، من حديث وقديم وعربي وافرنجي . وهي كالكنز الدفين والمعدن الثمين ، فاقبلنا على استخراج دررها واستنباط موادّها واعتمدنا عليها في الكلام

وان الموضوع لشهيّ ، في هذه الايام ، وأنظار الناس محوّلة الى بلاد الفرات : في الاشهر الماضية تمّت بناية جسره الكبير في دير الزور ، وفي الآونة الاخيرة اشرأبت الاعناق الى الجزيرة ولا تزال مشرئبة اليها حتى الآن ، مستقبلة الرياح الحاملة بخار النفط والبترول . فمن اين يأتي ؟ وعن اي طريق ؟ والى اي مصب ؟

على ممرّ الانابيب ، سوف يمتدّ خطنا الحديدي ، الواصل بين البحر المتوسط والفرات الاوسط . وهناك مجاهل من تلال حوت آثار مدن داثرة ، وطوايا تاريخ عريق في القدم ، تختلف عليها البعثات فتجري فيها الحفريات وتستكشف غوامضها وتستقرئها اخبار السلف ، فتهتدي بها متبعةً على مجاري الفرات

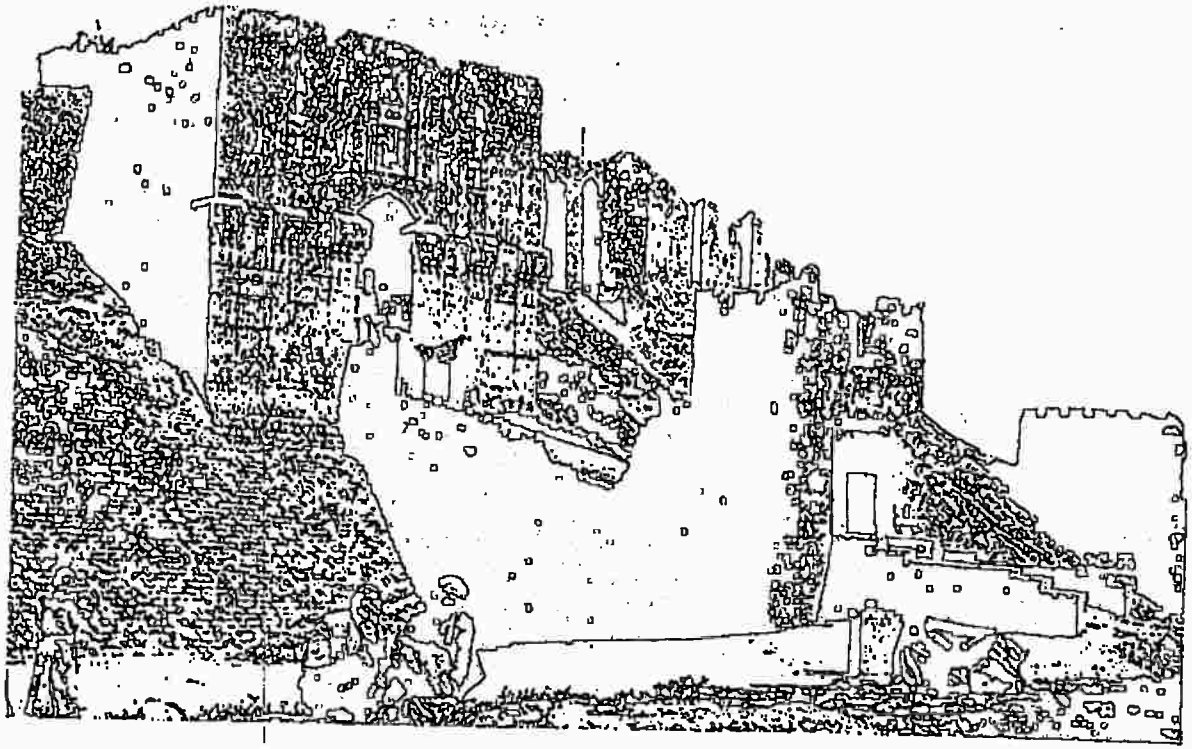

قلعة حلب

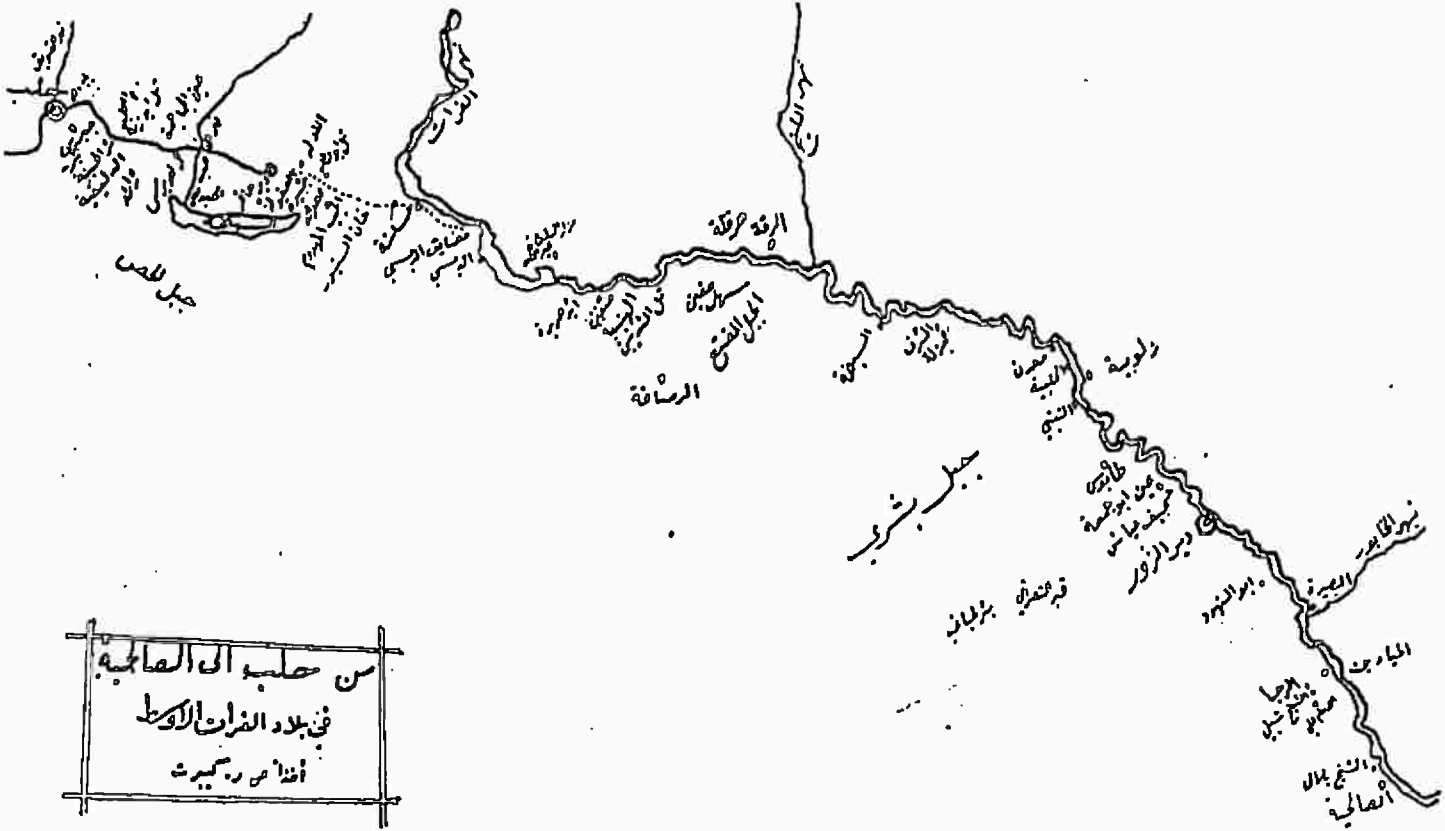

خارطة رحلة من حلب الى الصالحية

كسينوفون في رحلاته ، والاسكندر في فتوحاته ، وآثار المستعمرات الرومانية ، والوقائع العربية بين الانجاد والبطون والقلاع والحصون .

فلا اقل من ان نلتفت الى النتائج التي بلغ اليها الرواد والمنقبون ، فنشارك اهل العلم بافراحهم ومظانهم فيما يكتشفون ، ونهتم بماديات بلادنا ، ليس فقط كالتجار ولكن كالعقلاء المشغوفين بالمعقولات ، فندرس معانيها ، وننظر اليها نظرة الابناء الحرصاء على ارث الجدود وآثارهم .

هذا والبحث في احوال تلك البلاد يمهد السبيل لوضع الكتب الجغرافية المدرسية ، والناشئة لا تزال بمسيس الحاجة اليها ؛ وقد يأتي الكثيرين من القراء ، بفوائد يجهلونها ، وهم في الغالب يعرفون عن بلاد مصر واوربة واميركة اكثر مما يعرفون عن بلاد سورية الشمالية وما بين النهرين . وان ما نود الكلام عليه لبرنامج واسع النطاق . ولا بدّ ان نكتفي منه ، اليوم ، بوصف رحلتنا على جناح السرعة ، والله الولي بالحلّ والترحال .

« على باب الله »

« باب الله » موضع في ظواهر حلب ، كان محطة المسافرين الاولى عند خروجهم من الشهباء نحو الشرق . وسار عندهم المثل « ذهب على باب الله » ، اي سافر في طلب الرزق . ومن تلك الناحية ، تمتدّ الطريق الى الفرات ودير الزور وبغداد .

وكانوا من اقل من عشر السنوات ، لا يقدمون على الرحيل منها الا بالعدد والعديد ، فتسير القافلات ، في المواسم المعهودة ، مزوّدة بجميع ما يحتاج اليه المرء لقطع البيداء وردّ هجمات اللصوص . وكان المسافرون يخرجون قبل الفجر من « الخان » ، فتستيقظ احياء البلدة لمرور الخيل والجمال ، ولخلخلة الجلاجل في الازقة . فيهرع الاولاد ويشرفون من نوافذ البيوت على موكب الراحلين . اما اليوم ، فرحيل ، ولكن لا خلخال ولا جلجال ؛ انما هو بوق السيارة يبوّق فيفاجئ الجمّال والبغّال في الاسواق ويستفزّ الكسالى النائمين .

وركبنا ستّة في سيارة فورد : اربعة انفار مسافرون ، والسائق ، والجندي الافرنسي

المعهود اليه بمرافقة البريد ؛ ومعنا ايضاً ، عدا امتعتنا ، اكياس مجيديات صدرها بعض التجار لكساد سوقها في حلب ، وهي لا تزال رائجة في البادية ، والعرب لا يقبلون الا المعدن الرنان نقوداً . اما زادنا فليس باكثر مما يتزوّد به راكب القطار الحديدي لسفرة نهاره .

خرجنا من حلب ، والقلعة على يميننا : لو اتيح لنا ، آنذاك ، ارتقاء تلها المهيب ، والصعود على مأذنتها ، لتمتعنا نظرنا بما يتمتع به نظر البحّار اذا تسلق ذروة الصاري واستكشف الافق ، ضارباً بمرامي النظر ، معدل المساحات في وجهه . امامنا سهل واسع الارجاء ، قاتم الالوان ، في خلاله بساتين الزيتون والفستق ، ومن ورائه تربة حمراء ، اسبلت عليها الحقول المزروعة حلةً خضراء ، ومن بعدها بقاع جرداء تلألأت على جانبها القبلي سبخات الجبول ومالحها البيضاء المتعكسة عليها اشعة شمس الصباح . وابعد من ذلك ، نحو الشرق بشمال ، وادي الفرات الساقي اعالي الجزيرة ، المتقارب الى سورية الشمالية تقارب الرفيق ، كأنه يحدثها بآمال زيارته اراضيها ، واحيائه يورها . وهيئة ذلك السهل اشبه بالبحر الهادئ المتموج بموجات بعيدات المدى ، تشقه الطريق السلطانية ، بين صعود وهبوط الى ما وراء دير حافر

الى دير حافر

توجهنا نحو الشرق ، وقطعنا البساتين والكروم ، وحقولاً مزروعة ولكنها جدباء ، عطشى ، لان المطر الذي سيسقط في نيسان لم يكن بعد قد انعشها . هوذا ، في جوارنا ، آثار نيرب القديمة ، ثم جبرين . فتلظى مرجل السيارة وزمجر ، ونحن نرتقي من علوّ ٣٩٨ متراً الى ٤٧١ متراً فوق سطح البحر . واشار ميزان السرعة الينا بعدد الكيلومترات فاذا هي ستون ثم سبعون بالساعة . ويمكننا ان نواصل السفر بسير اسرع ، لولا وجود العمال المشتغلين في تعبيد الطريق ، واتقاؤنا وقوع المكروه . قطعنا محلة بئر الحسينية والدليقية وابوزنة ، وسرنا ، وعلى يسارنا تل الطيارة ، وام العمل ، وعلى يسارنا انقاض السفيرة ، وضيعة تريكية ، وراشد ومن ثم منخفض من الارض ، ومستنقع تنساب فيه ،

بين الحصى ، مياه عين الجماجة ثم نهر الذهب . هذه البقاع كانت خصيبة ، عامرة ، آهلة ، في الزمان القديم ؛ لان طبقاتها تحت الارض تحوي من المياه ما يكفي مؤونة ريّ الارياف الواسعة . اما اليوم ، فقد غار ماؤها ، وسكتت طيورها ، وسكنت الحركة في حقولها . هناك مسافات خفق عليها لواء الوحشة فلا يقطنها انسي ولا جني ولا يُرى فيها الا بعض الجمالين يسوقون جمالهم ويأتون باللبن والحليب والبيض فيبيعونها في حلب . اليك فرقة من مشاة العسكر السنغالي مع عدتها الحربية للمناورات العسكرية هذا خان القويرس ، وتل الحميمة[1] . واليك دير حافر . وهي محطة البريد الاولى بعد حلب . سلم المأمور كيس المكاتيب . ونظر السائق الى السيارة فاذ باحد دواليبها مفزور ، فهب لتصليحه . وما اكثر ما سوف يعود الى تصليحه طيلة الطريق ، لان علة الفزر هي مسمار انغرس في لحم المطّاط وظل على مدى ساعات يشكّ مصران الهواء ويعذبنا ، الى ان كشفنا عليه وقلعناه بعد تأخيرنا ساعات على الطريق . لكني لم آسف على الاربع الساعة الطوال التي كنا نقضيها في البادية ريثما يتم تصليح الدولاب كلما انفزر ، لانها كانت فرصة سانحة لتشبيع النظر بمشاهد الصحارى ، والتحدث تارة الى رعيان الغنم ، وطوراً الى العرب سكان بيوت الشعر .

وها اني نزلت اطوف قرية دير حافر . فيها سوق وجامع ومدرسة ومقبرة ؛ وبيوتها مبنية بالطين واللبن ، وماؤها غزير في ابيرة عمقها متراوح بين الاربعة والخمسة امتار . سكانها مسلمون الا رجل واحد ارمني يتعاطى فيها الحدادة والخبازة وله حانوت فيه شتى البضائع . ورأيت ولداً حاملاً كتابه في خرجه الصغير ، فسألته :

— الى اين يا ولد ؟

— الى البيت .

— والمدرسة ؟

---

١) راجع خارطة مرتزفلد في الكتاب : الرحلات الاثرية لزافيه ساره وهرتزفلد *Archäologische Reise im euphrat und Tigris Gebiet von* F. Sarre *und* E. Herzfeld, *Berlin, 1911.*

— انتهت ، اتينا الشيخ فصرفنا لعدم حضور عدد التلامذة الكافي.

فسألته الذهاب وايله الى استاذه. فمضينا ولحق بنا غيره من الاولاد ، وسرنا في طرقات الضيعة ، ضيقة ، ملتوية. وكنا نكشف على داخل البيوت وهي في التالب متلاصقة الجدران ، ملتحمة الحدود ، غرفها للبشر ، وعرصتها للبهائم من بقر وجمال وغنم ودجاج. دخلت المدرسة ، فاذا الشيخ « المغربي » جالس على انفراد في الصدر ، وتلميذان قاعدان بالقرب من الباب ، يكتبان ، بينما سائر الاولاد سراحى مراحى على الطرق . نهض الشيخ مرحباً . فسألته :

— اين التلامذة ؟

— في المنتزه.

— لا بد انهم مجتهدون ناجحون ؟

— بلى . وها ان اثنين منهم على وشك ختم الكتاب .

وانقضى اسبوعان ، ومررنا بدير حافر إياباً . فاستوقفني احد الاحداث وقال :

— اليوم حفلة الختام في القرية ، تفضل وانظر.

فمشينا ، فاذا باهل الضيعة قد التأموا في فناء دار كبيرة ، والرقص والدبك قائم على قدم وساق ، بين الرجال والشبان ، والنساء اجمعهن سافرات يلتهين بالحديث ، واصابعهن تغزل الصوف ، والشيخ ، معلم مدرسة القرية ، يفاخر بتلميذيه خاتمي الكتاب.

وكان في ساحة القرية رجل من اعيانها فحدثني عن ماضي المدرسة وقال : كان لنا استاذ راقٍ ، فلم يتفق والاهالي فهجرنا ومضى . ويا ليت من يسعى لنا بانشاء مدرسة تعلم مع القراءة والكتابة ، الحساب واصول اللغة الافرنسية.

على طريق « الكول »

تركنا الجادة وتوغلنا في صحراء لا طريق فيها ، سوى آثار دواليب السيارات والمركبات ، المرسومة على الرمل بخطوط متشابكة . وربما تشعبت تارة الى اليسار وطوراً الى اليمين والتبس امرها ، فعنيت السلطة باقامة كثبان من الرمل

زهاء كل مئة متر ، هداية للسواق . ان مسالك الشول منها للشتاء ومنها للصيف . فطريق الصيف تجانب الفرات وتختصر المسافات ، وطريق الشتاء تتجنب المهابط والوديان وترقى التلال توقياً من الوحل . سرنا على تلك الرمال بسرعة معتدلة خشية ان تتهور في هاوية او نمشر بمرتفع ليس بالحسبان . لقد اتخذت ادارة النافعة السورية تسمى بمدّ الجسور على الغدران التي تجف في الصيف وتتحول في الشتاء الى سيول عرمة ، ومهدت السبيل للسياحة بوضع انصاب حجرية نقشت عليها اسماء الامكنة المتصلة بالطرق ، وصارت توصف الطريق كلها شيئاً فشيئاً ، آخذةً بالاقسام القريبة من محطات المسافرين ؛ والعمل متواصل في تكملة تلك الشعب حتى تتم الطريق بين حلب والجزيرة .

ان من الصحراء مسافات شاسعة لا تعرف اسماء مواقعها المهمة الا بسؤال الربان عنها ، او بالاحرى بمطالعة ما كتبه عليها الرواد . اليك محلة العقولة ، واللالة ، ومعداته ، والجبيرة ، وتل ابو مطلع ، والجب المهدوم ، وخان السنيور . ومن ثم تنحدر الطريق من علو ٣٦٠ متراً الى ٣٠٨ ، حتى تبلغ مسكنة في علو ٢٣٢ . وقفنا . سلم موظف البريد المكاتيب . ولم ندخل الخان ، بل هناك حوانيت بنيت على طراز المدن في واجهة الطريق ، وفيها الحاجيات من اكل وشرب ووقود . من محطة المسكنة تتشعب الطريق جنوباً وتوصل الى اسكي مسكنه ، ذات المأذنة العالية على الجبل . اما نحن فواصلنا السير نحو الغرب ، وما عتمنا ان دخلنا مضايق الدبي الملتوية كالافعى على جانب الفرات . وزمّر السائق خشية ان يفاجئ في كوع الطريق سيارة او قافلة . الارض والاكام حولنا بيضاء كلسية ، تنعكس عليها اشعة الشمس فتؤذي العيون ، وتمرّ عليها السيارة فتثير الغبار غيوماً . الفرات قريب ، وهو خفيّ عن العيون . حطت بنا السيارة على باب خان ابي هريرة . فشربنا ماء الفرات وواصلنا السير ، وعلى يسارنا مزار وهو قبة مبنية على جبل . وعند منحدر الجبل تتفرع الطريق فرعين ، احدهما يؤدي الى الرصافة جنوباً ، والآخر يلازم مجاري الفرات بعيداً عنها في اعالي الانجاد . في هذه الانحاء تمتد خارطة هرتزفلد محلة الهنيدية ، وتل الثديين ، والمنيطر وهو في مستوى ١٦٧ متراً فوق سطح البحر . وهناك على مجرى الفرات ،

موقع خان الحلم ترده السيارات في الصيف وتتنحى عنه جنوباً في الشتاء ، في مرتفعات الجبل المضبع .

هذه قلعة سورية[1] ، وتلك محلة ابو قبي ، ومنها المشرف على الفرات وعلى البساتين الممتدة على جانبيه ، وهناك يتفرع النهر فروعاً وتسمى الاراضي زوراً . وعلى بعد من شاطئ الفرات الشمالي انقاض هرقة . ومنها الى الرقة مسافة قصيرة .

الرقة واقعة قريباً من الفرات ، في منتصف المسافة الممتدة بين هرقلة وبين نهر البليخ ، ساعد الفرات الايسر . من لنا بطائر يحملنا في جوّ تلك الانقاض ، ويحلق بنا عليها فنمتع النظر بآثارها . ولكن لا بد من الرحيل والاسراع لان رطوبة الاصيل انتشرت في الصحراء . سلمنا نفرين من فرسان الجندرمة يريد الرقة ، وواصلنا السير في الشول . والمخيلة تحدثنا بايام الروم وعساكرهم وهارون الرشيد وعزّه ، اذ كان عمال البريد يمخرون البلاد حاملين اخبار الاقاليم واوامر الخليفة الى عماله .

تركنا اراضي الرقة وخضنا سهول صفين الشهيرة بالمعركة التاريخية التي اشتعلت نيرانها بين معاوية والي سورية وعلي بن ابي طالب في السنة ٦٥٧ م . وانتزر مطاط الدولاب مرةً اخرى وعطشنا ، فتحول بنا السائق الى بيوت الشعر المضروبة هناك وهي لعرب الخميس . فاضافونا وأقرونا الزبدة والشنانة .

سألتهم : هل لاولادكم معلم ؟

قالوا : كانت الحكومة قد عينت لنا معلماً ، فاقام بيننا مدةً ثم مضى .

لقد مالت الشمس على المغيب . حيّ يا سائق ! وطارت السيارة بسرعة وفطنة . ومررنا بالقرب من نصب شادته الحكومة هداية للسافرين ، وعليه كتابة ، وتحتها صورة سهم موجه الى الشمال . فقرأنا هذه الكلمات : طريق الصحراء . وقرأها السائق بصوت سمعناه ، فكان كصوت الطفل اذا نادى امه وقد اشعر بقرب وقوع الخطر . الصحراء ! ارض التيه والعطش ، مسرح

---

١) راجع خارطة هرتزفلد .

الوحوش الضواري ، ومهبط الظلام واللصوص. حيّ يا سائق ! واخذت السيارة تنحدر من اعالي الآكام على طريق مكوّعة كانها في جبل لبنان ، وما هي دقائق الا ونحن في محطة السبخة وهي كثيرة الوحل في الشتاء. وقد اخذت الحكومة تعتني بعد طريق على اقبية ، تخترقها الاقنية وتصرف المياه عند سقوط المطر. بالقرب من السبخة محلة فيها نبع تدعى النخيلة .

استقينا وواصلنا السير . هناك يفيض الفرات ويروي واحات ، منها الزور الجبلي وزور شمر . ثم جزنا محلة المجيرة ، وقطعنا جزلة وبئرها ، والخميسية ومنها طريق الى مفاضة الفرات ، وناحية ممدن ، ودرب الواوي ، والكسوبي ، قريباً من الخاسومة ، حيث المياه تجتمع في مجرى واحد ، متوجهةً الى الغرب ، ملتوية بين الحلبية والزلوبية وبين محلة الشيخ شبلي ، وتارة تنقسم عن حويقة ، وطوراً تجتمع قريباً من قرية التبني . هناك تنحدر الطريق الى مستوى ٩٥ متراً فوق سطح البحر ، ثم ترتفع مرتقية التلال المتاخمة انجاد جبل بشري . في ذلك الموضع يتحوّل مجرى الفرات من مهده القديم الى الشمال ، فيترك من بعده تربةً تتقشر قشوراً عند جفافها تحت اشعة الشمس الحارة . اليك نبع ماء واشجار وهذا الموضع يسمى مريم . ومن ثم محلة طابوس ، وعين ابي جمعة في علو ٦٠ متراً ، ومن بعد مرتفعات فيها موضع يسمى حجيف ماء عياش . واخيراً قطعنا جسراً وما هي عشر دقائق الا دخلنا دير الزور .

من دير الزور الى الصالحية

قصدنا الى الصالحية بعية السيد المطران خوديش ، والاباء الافاضل الياس سالم ، خوري السريان الكاثوليك ، ويوسف جنانجي خوري الارمن الكاثوليك ، وجوستينيان الكبوشي ، والسيد ابراهيم جنانجي شقيق الخوري يوسف . سلكت بنا السيارة طريق بغداد ، فاجتازت جنوبي المدينة ومرّت بدار المكس . فقاطعنا احد رجالها سائلاً : الى اين ؟ فاجابه السيد ابراهيم « كزدره » ، ومعناها عندهم دورة او تنزهة . صعدت الشمس الافق فلذعتنا باشعة كانت حرارتها تتنابنا مع برودة الصباح فتنهش البدن . لا فرق بين ما نراه في الصحراء اليوم

حلب كنا رأيناه بالامس ، الا اننا في سهل واسع ممتد على جانب الفرات ، يتاوز عرضه الاثني عشر كيلومترًا بين شاطئ النهر والجبل . لما طغى الفرات وطاف طوفانه سنة ١٩٢٩ غمر هذه الاراضي ورواها . فزُرع بعضها قدرةً وما زالت اعشابها الى يومنا مرعى للمواشي . وفي سابق الزمان كان الفرات يسقي اسفل الجبل ثم « ازور » وغير مجراه ، وترك بينه وبين الجبل السهل المذكور . سفوح الصخور تلمع في الشمس عن بعد كانها قطع الكافور وشقاقها تحوي اعشاش الطيور . سرنا ثلاث ساعات في السيارة ، فبلغنا انقاض البصيرة القديمة ، وحططنا في الميادين بين ارياف آهلة مزروعة وموقعها عند التقاء الخابور بالفرات .

في الميادين اقام الدناشة بعد جلائهم عن بلاد بعلبك . بلغهم خبر قدومنا فوفدوا الينا مسلّمين مستقصين انباء بيروت ومن فيها من باقي آلهم ، وقد تعرفنا اليهم ابان زيارتنا سجن الرمل .

على بعد ساعة من الميادين قلعة الرحبا ، فزرناها ، وزرنا في جوارها « مقام علي » ، واشرفنا على محلات عين علي ومزار الشيخ ابن مالك والشيخ سراج الدين والشيخ شبلي .

وضاق بنا السهل بين الفرات والجبل ، جنوبي الميادين ، فتوقلنا الهضاب وحولنا السير نحو الصالحية الى الشرق ، فوصلناها ساعة قبل الظهر . فاستقبلنا السيد نودي الافرنسي ، احد رجال البعثة الواقفين على اعمال الحفريات ، وبتنا وايانا في آثار المدينة القديمة « دوره اوروبس » . وهذه هي ابعد محطة بلغت اليها رحلتنا على شاطئ الفرات .